﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ١٦٦﴾ [الأعراف: 165 - 166]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لما قَبْلَهُما:

نتيجةُ الحوار الجدليّ بين الفِرقتين

بعد أن عرضتِ الآياتُ السابقةُ انقسامَ أهل هذه القرية إلى فرقٍ ثلاث، وتناولتِ الحوارَ الجدليَّ بين فرقتيْن منهم حول معصيتهم، جاءت هاتان الآيتان الكريمتان لِتُجْمِلا ما حَلَّ بأهل هذه القرية جميعًا، وبيان مصير كلّ فِرقة منهم.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَسُواْ﴾: ذكر ابن فارس أنّ النّون والسِّين والياء أصلان صحيحان يدلُّ أحدُهما على إغفال الشيء، والثاني على ترك الشيء[1]، ولعلّ الأصليْن يعودان إلى أصلٍ واحدٍ؛ فإنَّ تركَ الشيء ثمرةُ إغفاله. "والنِّسيانُ: تركُ الإنسان ضبطَ ما استُودِعَ إمّا لضعفِ قلبِه، وإمّا عن غفلةٍ، وإمّا عن قصدٍ، حتّى يَنْحَذِفَ عن القلب ذِكْرُه"[2]. والنِّسيانُ: جَهْلُ الإنسانِ بما كانَ يَعْلَمُهُ ضَرورَةً مع عِلْمِهِ بأُمورٍ كَثيرَةٍ، لا بآفَةٍ. أو هو عدمُ ذِكر ما قد كان مذكورًا؛ وهو ضِدُّ الذِّكْرِ. وَمن مَعانيه: الغَفْلَةُ والسَّهْوُ والتَّرْكُ[3].

2) ﴿بَـِٔيسِۭ﴾: أي: شَديدٍ، فمادة (بأس) تدلُّ على الشدَّة[4]، والبُؤْسُ والبَأْسُ والبَأْساءُ: الشدَّةُ والمَكروهُ، إلّا أنَّ البُؤسَ في الفَقرِ والحَربِ أكثَرُ، والبأسُ والبأساءُ في النِّكايةِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نسي).
(2) الرّاغب، المفردات: (نسي).
(3) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (نسي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بأس).
(5) الرّاغب، المفردات: (بأس).

3) ﴿عَتَوْاْ﴾: العين والتاء والواو أصلها يدلُّ على الاستكبار[1]، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ عن الطاعة[2]، والعُتوُّ: التَّجَبُّرُ والتَّكَبُّرُ، وأَصْلُ العُتوِّ: مُجاوَزَةُ الحَدِّ، وكُلُّ مَن جاوَزَ الحَدَّ في كِبْرٍ أو فَسادٍ أو كُفْرٍ فهو عاتٍ، والجَمْعُ: عُتاةٌ. ويأْتي العُتوُّ بِمعنى العِصْيانِ. ويُطْلَق على التَّمَرُّدِ وشِدَّةِ الإفْسادِ. والعاتي: الشَّديدُ الفَسادِ المُتَمَرِّدُ الذي لا يَقْبَلُ الحَقَّ. ومِن مَعانيه أيضًا: البَغْيُ، والطُّغْيانُ، والعِنادُ[3].

4) ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾: أصل (خسأ) يدلُّ على الإبعاد[4]، والخُسوءُ: الزَّجْرُ باستهانةٍ، يقال: خَسَأْتُ الكَلبَ فَخَسَأَ، أي: زَجَرتُه مستهينًا به فانزجَرَ[5]. ومعنى الآية: صاغِرينَ ذليلينَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـاقـبـةُ كـلٍّ مـن الـفِـرقـة النَّاهية والفِرقة العاصية

بيّنتِ الآيتان الكريمتان أنَّه بعد أن استمرَّ أهلُ العصيان في عصيانهم، وتناسَوا ما ذُكّروا به من الواعظين لهم، أنجى اللّه الذين ينهون عن المنكر من العذاب، وأخذ الذين ظلموا باعتدائهم بعذابٍ شديدٍ بسبب خروجهم عن طاعة اللّه وإصرارهم على المعصية.

فلمّا تمرَّدتِ الطائفةُ العاصيةُ، وتجاوزت ما نهاها اللّه عنه وتجاوزوا الحدَّ في عصيان اللّه، ولم يتَّعظوا ولم يعودوا عن غيِّهم، قلنا لهم: كونوا قِردَة أذلّاء مُبْعَدينَ من كل خيرٍ، فكانوا كذلك؛ فتمَّ مُرادُ اللّه.

وترشد الآية إلى ثمرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبركتِه؛ فقد نجَّى اللّهُ تعالى الناهينَ عن المنكر، وأهلكَ الذين باشروه ولم

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عتو).
(2) الرّاغب، المفردات: (عتا).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عتو)، والكَفَويّ، الكلّيّات، ص: 598.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسأ).
(5) الرّاغب، المفردات: (خسأ).

ينتهوا عنه، وأنَّ إطلاقَ لفظِ السوء على المعصية مُؤْذِنٌ بأنَّ المعصيةَ مهما كانت صغيرةً تُحدِث السوءَ في نفس فاعلها.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى الفاء ودلالتُها في العطف:

(الفاء) هنا عَطَفَتْ ما بعدَها على ما تقدَّمها، وتعطي الفاءُ معانيَ التّعقيبِ السريع، فبمجرَّد أن تناسَوْا تذكيرَ الواعظين واستمرُّوا بمعصيتِهم حتّى استمرؤوها؛ وقعتِ العقوبةُ على المعتدين، والنّجاةُ للمؤمنين. ولا يخفى أيضًا أنَّ الفاء فيها معنى الإفصاح وتطوي وراءها أحداثًا كثيرة من محاولات الواعظين واستكبار المعتدين، وحوارات المتثاقلين مع الواعظين.

تعجيلُ اللهِ عقوبةَ المعتدين، وإنجاءُ المؤمنين

معنى (لمّا) ودلالتُها في الاستعمال اللّغويّ والقرآنيّ:

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتَقتضي جملتيْن وُجِدت ثانيتُهما عند وجودِ أولاهما، فهي حرف وجوب لوجوب، أو وجود لوجود، أي: وجوبُ وجودِ الجملة الثانية لوجودِ الأولى. ورأى بعض النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قوله: ﴿نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ جملةً لا محلَّ لها من الإعراب، أو في محلِّ جرّ بإضافة (لمّا) إليها، والعاملُ فيها جوابها، وهو قوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾، وهي جملةٌ لا محلَّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جوابُ شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقَّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتِّبًا على وقوع النّسيان.

ارتبطت العقوبة في الآية الكريمة بالأسباب التي دعت إليها

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

أسلوب الشّرط قويٌّ في إثبات مفعولِه، إذ يربط جوابَه بتحقُّقِ فعلِه، فتكون النتيجة مرتبطةً تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء

سنّةُ اللهِ في إهلاكِ الظالمين وحفظِ المؤمنين لا تتخلَّفُ ألبتّةَ

(1) ابن هشام، مغني اللّبيب، ص: 309.
(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 67/3 - 68.

هذا الأسلوبُ الشرطيُّ ليبيِّنَ سنَّةً من سُنن الله التي لا تقبلُ التغييرَ والتّبديلَ في استئصالِ الظالمين المداومين على ظُلمِهم عند انقطاع الأمل في رجوعهم للحقّ، شأنُها في ذلك شأنُ كثيرٍ من سنن الله الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيّ، كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11] وقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾ [محمد: 7]، ثمّ جاء جواب الشرط ليشملَ أمرين معطوفيْن: الإنجاءُ أولًا للمؤمنين، والأخذُ للمعتدين، فحوى الجواب وعدًا ووعيدًا.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾:

شبّهتِ الآيةُ الكريمة تركَ ما أُمروا به بنسيانهم له بجامع غير المبالاة وعدم الاهتمام

في الآية استعارةٌ تصريحيّة تبعيّة، حيث شبّه التَّرك بالنِّسيان بجامع عدم المبالاة وحَذف المشبَّهَ وأبقى المشبّهَ به، والقرينةُ المانعة من إرادة المعنى الحقيقيِّ أنَّ الإعذارَ من النِّسيان معقولٌ ومقبول، ولكنَّ المؤاخذةَ عليه تبيّن أنّه لم يكن مجرَّد نسيان، فسُمِّي نسيانًا مُبالغةً؛ إذ أقوى منازل التَّرك أن يُنسى المتروكُ[1]. ويجوز أن يكون مجازًا مُرسَلًا لعلاقة السَّببيَّة[2].

عَوْدُ الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾:

الضَّمير في ﴿نَسُواْ﴾ عائدٌ إلى ﴿قَوْمًا﴾ أي: المعتدين الذين تركوا ما ذكَّرهم به الصّالحون[3]، وهذا إيجازٌ بديع في إضمار ما تمَّ إظهارُه.

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

دلَّ نظمُ الآية الكريمة على أنّ عدم الانتفاع بالتّذكير مُؤْذِنٌ بوقوع العذاب

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾: موصولةٌ، قال ابن عطيَّة: "ويَحتمِلُ أن يُرادَ به الذِّكْرُ نفسُه، ويَحتمِل أن يرادَ به

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 135/9.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 208/5.

ما كان فيه الذِّكر[1]"، إضافة إلى أنّ (ما) تدلّ على العموم، بمعنى أنّهم تناسَوا كلَّ شيء يمكن أن يفيدَهم إذا تذكّروه، فيفيد نسيانَهم للمنزل عليهم، ونسيانَهم لتذكير قومهم لهم.

نُكتةُ مجيء جملةِ صلة الموصول بالفعليّة المبنيَّةِ لما لم يُسَمَّ فاعلُه:

نظمُ الجملةِ الكريمة يدعو المعتدين للانشغال بمضامين الدعوة دون وسائلها

جاءت جملةُ صلة الموصول ﴿ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعله إيجازًا من ناحية وذلك للعلم بالفاعل، ودفعًا لهم للانشغال بمضمون فعل التّذكير نفسه دون النّظر إلى فاعله من ناحية أخرى.

معنى الباء في ﴿بِهِۦٓ﴾:

الباء للسببيّة أو للتعدية أو للمصاحَبة

يمكن أن تكون الباء هنا سببيّةً بمعنى: فلمّا نسوا ما ذُكّروا به من عدم التّعدّي بسبب موعظة الواعظين، أو تكون الباء للتعدية على معنى: فلمّا نسوا التّذكرةَ لهم، أو يمكن أن تدلَّ الباء على معنى المصاحبة والملابسة، بمعنى أنَّ الدُّعاة النّاصحين ما انفكّوا عنهم بالنّصيحة والموعظة التي لابَسَتْهم في كلّ أوقاتهم، وكلُّ هذه المعاني سائغةٌ رائقةٌ ولها وَجاهَتُها المعقولة.

الموقع النَّحْويّ والبيانيّ لقوله: ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾:

دلّت جملة جواب الشرط على تحقّق الوعد والوعيد

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدَّم من أنَّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشَّرط بمحذوفٍ، وذلك حتّى تبيِّن أنّه بمجرد حدوث فعل الشَّرط تحقَّق جوابه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

نكتة مجيء الاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ﴾:

دلَّ الاسم الموصول هنا على التّعظيم لهذه الفئة التي أَمرت

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 469/2.

بالمعروف ونَهت عن المنكر، وقامت بحقِّ اللّهِ في الوعظ والنّصح للفئة المعتدية، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتي فيه التّعريف على دُفعتيْن؛ لأنَّ الاسم الموصول مبهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملة صلة الموصول جاءت بالفعل المضارع الدّالِّ على استحضار صورة هذه الفئة الإيجابيّة أمام القارىء وهي تمارس مهمة الوعظ من ناحية، ودالّة أيضًا على ضرورة التجدّد الاستمراريّ لهذا الركن العظيم حتّى لا يعمُّ العذابُ جميعَ الأمّة.

عـظَّـم الـقـرآن شـــأن الـفـئـة الآمرة بالمعروف والـنّـاهـيـةِ عن المنكر

بلاغةُ الحذفِ أو الذكرِ لجزاء الفريق الثالث القائل: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾:

يُفهم من صريحِ العبارات ومفهومِ الإشارات من هذه الآيات التي تناولتْ قِصّةَ القريةِ حاضرة البحر، أنَّ أهلها انقسموا ثلاثَ فِرَقٍ: فرقة عَصَتْ وصادَتْ، وفرقة نَهتْ وجاهَرتْ وتكلَّمت واعتزَلَتْ، وفرقة اعتزلَتْ ولم تعصِ ولم تَنْهَ، وأنّ هذه الفرقةَ لمّا رأت مجاهرةَ النّاهيةِ وطغيانَ العاصيةِ وعُتوَّها قالت للنّاهية: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا﴾؛ ثمّ اختُلفَ بعد ذلك في مصير هذه الفرقة الثالثة، فقيل إنّها هلكت مع العاصية عقوبةً على ترك النّهي، ويدلُّ على ذلك ظواهرُ النّصوص والأحاديث الكثيرة. وقال أكثرهم: بل نجت مع الفرقة النّاهية لأنّها لم تعصِ ولا رضيت[1]. ومالَ بعضُ المفسّرين إلى أنّ القرآن الكريم قد سكتَ عن مصير الفرقة الثالثة؛ تَبكِيتًا لهم وتقليلًا من شأنهم لأنّهم سكتوا عن الحقّ.

انـقـسـم أهـل الـقـريـة ثـلاثَ فِـرَقٍ معتدية، واعـــظـــة، ومثبّطة، فصرَّحَ الـقـرآنُ بجزاء أوّل فـرقـتـيْن، ولـــم يُـصـرِّحْ بمصيرِ الثالثة لتذهبَ النّفس فيه كلَّ مَذْهبٍ

معنى أل في ﴿ٱلسُّوٓءِ﴾:

يمكن أن يُراد بالسّوء هنا اعتداؤهم في يوم السّبت، فتكون (أل) عهديّةً، على اعتبار حديث القرآن عن أهل هذه القرية على وجه الخصوص. ويمكن أن تكون (أل) جنسيّة يُراد بها كلُّ المعاصي والذنوب؛ لأنَّ هذه المعاصي على عمومها تستوجب أمريْن: إنكارها،

العـبرةُ بعموم الـلّـفـظ لا بـخـصـوص السَّبب

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 754/2.

وترتّب العقوبة عليها، ويكون المعنى هنا أنّ اللّه تعالى ينجّي الذين ينهون عن المعاصي والذنوب في كلّ زمان ومكان؛ فالعبرة بعموم اللّفظ لا بخصوص السبب.

نُكْتَةُ تقديم الإنجاء على الأخذ:

تقديم الإنجاء هنا هو للعناية بشأن فرق الواعظين النّاهين عن المنكر؛ فبدأ بهم إكرامًا لهم لفضيلة عملهم، وقد ساعد على هذا التّقديم سياق السورة الكريمة في ذكر النّعم التي أنعم اللّه بها على بني إسرائيل عبر تاريخهم الطّويل، وما تقدّمها من قوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: 159]، ثمّ ثنّى بجزاء المعتدين؛ لأنّه أَطْنَبَ فيه ورتَّبَ عليه بعد ذلك أحكامًا كثيرة.

تقديمُ الوعد على الوعيد قد يكون من باب إكرام المؤمنين، وترهيب الكافرين

بلاغة العطف في ﴿وَأَخَذْنَا﴾:

هذا النّوع من العطف يَحسُنُ بين المتقابلات، وهي في الآية: ﴿أَنجَيْنَا﴾ و﴿وَأَخَذْنَا﴾؛ لأنّ العطف يقع بين حالَيْن متقابلَيْن: التّغاير والتّشريك، فالعطف هنا للتّشريك بين الجزاءَيْن، فالأوّل للمؤمنين، والثّاني للمعتدين، وحَسُنَ العطفُ للتّغايُرِ بين حالَيْهما بين وعدٍ ووعيدٍ.

عَطْفُ ذكرِ المعتدين بعد ذكرِ نجاةِ الواعظين

نُكْتَةُ التّعبير عن الإهلاك بالأخذ:

الأخذُ كنايةٌ عن عذابِ الاستئصالِ الذي أصابهم، فلا قرينةَ صارفةٌ من إرادة المعنى الحقيقيِّ للأخذ، وقد يكون من باب الاستعارةِ التّصريحيّة التّبعيّة بأن شَبَّه إهلاكَهم بأخذِهم؛ بجامعِ الزوالِ.

عبّر القرآن عن إهلاكهم بالأخذ بجامع الزوال

فائدةُ العدولِ في الأفعال من المضارعيّة إلى الماضويّة:

كان الظاهرُ أن يُقال لو كان في غير القرآن: (أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين يظلمون)؛ لتحصل المقابلة بين جملتيْ صلة الموصول: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ و(يظلمون)، لكنّ القرآن الكريم عَدَلَ إلى الفعل

في العدول تلوينٌ للخطاب وتجديدٌ في أسلوب الكلام

الماضي في ﴿ظَلَمُواْ﴾؛ ليبيِّنَ تَحقُّقَ الظّلمِ فيهم وتَمكُّنَه من نّواصيهم حتّى بات قديمًا متأصِّلًا فيهم.

نُكتةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول في ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾:

عـبّر عـن الفئة المعتدية بالاسم الموصول ذمًّا لها

دلَّ الاسم الموصول هنا على الذَّمّ والتّحقير لهذه الفئة التي اعتدت في السَّبت، ولم تستجب لِنُصْحِ الواعظين، ومن شأن الاسم الموصول أن يأتيَ فيه التّعريف على دفعتيْن؛ لأنّ الاسم الموصول مُبْهَمٌ ويحتاج إلى جملة صلة الموصول لإزالة إبهامه، وجملةُ صلة الموصول جاءت بالفعل الماضي الدّالّ على تَمكُّنِ هذا الظلم فيهم حتّى بات وصفًا قديمًا لهم.

غرضُ التّعبير عن معصية الاعتداء بوصفها ظلمًا:

الـظّـلـمُ هـو الـشـجـرةُ الـخـبـيـثـةُ الـتـي انبثقتْ منها كلُّ تـلـك الـذنـوب والمعاصي

يعرّف الرَّاغبُ الظّلمَ تعريفًا دقيقًا جامعًا مانعًا لم يُضِفْ عليه أحدٌ من العلماء بعده شيئًا جديدًا، بل قد أفادوا منه كثيرًا، يقول: "والظُّلمُ عند أهلِ اللغةِ وكثيرٍ من العلماء: وَضْعُ الشَّيءِ في غير مَوْضِعِهِ المخْتَصِّ به، إمّا بِنُقْصانٍ أو بزيادةٍ، وإمّا بِعُدولٍ عن وقْتِهِ أو مكانِه...، والظلمُ يُقالُ في مجاوزةِ الحقِّ الذي يَجري مَجْرى نقطةِ الدائرةِ، ويُقالُ فيما يَكْثُر وفيما يَقِلُّ من التَّجاوزِ، ولهذا يُسْتَعْمَلُ في الذَّنْبِ الكبيرِ وفي الذَّنْبِ الصغيرِ"[1].

وجاء الظلم في القرآن الكريم وصفًا لبعض الأقوام السابقة كقوم نوحٍ، وعادٍ، وثمودَ، وأصحابِ الأَيْكةِ، وقومِ فرعونَ، ولأهلِ الكتاب وغيرِهم. وجاء وصفاً للشياطين كما في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر: 16 - 17]. وجاء كذلك وصفاً لأعمال

(1) الرّاغب، المفردات: (ظلم).

الشِّرك والكفرِ والفسقِ والنِّفاقِ والمعاصي في مواضعَ كثيرةٍ من القرآن الكريم.

فالظّلمُ هو الشجرةُ الخبيثةُ التي انبثقتْ منها كلُّ تلك الأغصانِ المنتنةِ؛ فالتعدّي هنا سمّاه القرآن الكريم ظُلْمًا؛ فـ "العَدْوُ: التجاوزُ ومنافاةُ الالتئام، فتارةً يُعتَبَرُ بالقلب فيُقال له: العَداوَةُ والمُعاداةُ، وتارة بالمشْي فيقال له: العَدْوُ، وتارة في الإخلال بالعدالة في المعاملة فيقال له: العُدْوان والعَدْو. وتارة بأجزاء المَقَرِّ فيُقال له: العُدَواءُ. والعَدُوُّ ضَرْبان: أحدُهما: بِقَصْدٍ من المُعادي نحو قوله ﴿فَإِنْ كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ﴾ [النساء: 92]. والثّاني: لا بِقَصْدِهِ بل تَعْرِضُ له حالةٌ يتَأَذّى بها كما يَتأَذّى مما يكون من العِدَى نحوُ قولِه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: 77]. والاعْتِداءُ: مُجاوَزَةُ الحقِّ، وقد تكون على سبيلِ الابْتِداءِ وعلى سبيل المجازاة"[1].

وعلى هذا فقد عبّر القرآن الكريم عن هذا التّعدّي بكونه ظُلْمًا؛ لما فيه من ظلمِ النّفس أولًا، والانحرافِ عن الجادّة ثانيًا.

معنى الباء في ﴿بِعَذَابٍ﴾، وفائدة التّنكير:

الباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾، للتّعدية، وهي باءُ النّقل، ويمكن أن تكون للمُصاحَبَة، وفيها دلالةٌ على مصاحبة العذاب لهم، كقول القائل لمن أساء: (أخذناه بالعقاب)، وتنكير عذاب للتّفخيم والتّهويل[2]. وعليه يكون معنى قوله تعالى: ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، أي: أخذناهم من مراقِدِهم مصحوبينَ بعذاب شديد[3].

عـــذاب الـلـه تعالى إذا أصاب الـظـالـمين فـإنّـه لا ينفكّ عنهم حتّى يُهْلِكَهم

معاني القراءات في ﴿بَئِيسٍ﴾:

تعددتِ القراءاتُ القرآنيّة المتواترةُ لقوله: ﴿بَئِيسٍ﴾ فقد

(1) الرّاغب، المفردات: (عدا).
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 2991/6.

تتكامل القراءات القرآنيّة المتواترة في وصـف هـذا العذاب بالشدّة

قرأها نافع وأبو جعفر: بعذابٍ (بيْسٍ)، بكسر الباء من غير همز وتنوين السِّين، وقرأها ابن عامر (بِئْسٍ) بكسر الباء وهمزة ساكنة بعدها وتنوين السِّين، وقرأها أبو بكر عن عاصمٍ - في أحد وَجْهَيْهِ - (بَيْئَسٍ) بفتح الباء وهمزة مفتوحة بعد الياء الساكنة وتنوين السِّين، وقرأها الباقون ﴿بَئِيسٍ﴾ بفتح الباء وهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة وتنوين السِّين[1].

وجاءتْ جميعُها مع اختلاف لغاتِ العرب ولهجاتِها على أنَّها صفةٌ مُشبَّهةٌ تعني العذاب الشَّديد المهلِكَ الموجِعَ.

غرضُ وصفِ العذاب بالبئيسِ وتنكير الصفة:

قوله: ﴿بَئِيسٍ﴾ مشتقٌّ من البأس، وهو الشِّدة والقوَّة، وهو على وزن (فَعيل) إمّا وصفًا مشبّهًا أو مصدرًا، جاء الوصف به للمبالغة في الشدّة[2].

معنى الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

الباء للسببيّة، وهي عند الآلوسيِّ مُتعلِّقَةٌ بِـ ﴿وَأَخَذْنَا﴾ كالباء الأولى، ولا ضير فيه؛ لاختلافهما معنًى، أي: أخَذناهم بما ذُكِرَ مِنَ العذاب؛ بسبب فِسقهم المستمرِّ، ولا مانعَ مِن أنْ يكون ذلكَ سببًا للأخذ كما كان سببًا للابتداءِ، وكذا لا مانعَ مِن تَعْليله بما ذُكِرَ بعدَ تعليلِهِ بالظُّلْم الَّذي في حيِّز الصِّلة؛ لِأنَّ ذلك ظُلْمٌ أيضًا، ولَم يَكْتَفِ بالأوَّل لِما لا يَخْفى[3].

معنى (ما) بين المصدريّة والموصولة:

ارتبـط العـذاب بالفسق ارتباطَ السبب بالنّتيجة

(ما) في مثل هذه الحالات إمّا أن تكون مصدريّة تُؤوَّل مع ما يأتي بعدها على معنى: أخذنا الذين ظلموا بعذابٍ بئيسٍ بكونهم

(1) الأزهريّ، معاني القراءات: 427/1 - 428، وابن الجزريّ، تحبير التّيسير، ص: 380.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 136/9 - 137.

يفسقون، أو موصولة على معنى: بسبب الذي كانوا يفسقونه. ولا شكَّ أنّه على كونِهِ موصولةً أفاد الاسمُ الموصولُ ذمًّا ونعيًا عليهم؛ لكونه جاء التّعريف به بعدُ على مرحلتيْن: إبهامٌ ثمّ إعلامٌ.

نُكْتَةُ دخول (كان) على الجملة التَّعليليّة:

شدّةُ ملازمتهم للمعاصي استوجبت شِدّةَ العذاب

دلَّ دخول (كان) على جملة تعليل العذاب على أنَّ كلَّ معاصيهم التي استوجبتَ العذابَ أصبحت الآن خبرًا ماضيًا مضى وانقضى؛ إذ دلَّلَ دخولُ (كان) على انقضاء المعاصي وفواتها عند وقوع العذاب، حتّى كأنّها لم تغنَ بالأمس، وكذلك يدلّل دخولها على أنَّ العصيان هو شأنهم الذي كانوا عليه فلم يفارقهم قِيدَ أُنملة، بل كان ملازمًا لهم لا ينفكّون عنه.

بلاغة التّعبير بـ﴿يَفْسُقُونَ﴾ مادّة وصيغة:

تُصوِّرُ الألفاظُ القرآنيّةُ الأحداثَ الماضيةَ تصويرًا حيًّا أمام قارىء القرآن

المعنى المحوري الذي تدور حوله مادّة (فسق) هو: خروج الشيء عن حَدِّه أو حَيّزه لحِدّةٍ أو فساد: كحال تلك الفَواسق في طبائعها، وما يصدر عنها، كالفأر يفسد المأكولات ويَقْرِض غيرها، وقد حملوا تسمية الخمسة المذكورة في السنّة (فَواسِقَ) على معنى الخُبْث المعنوي[1]، وهي: قوله ﷺ: «خَمْسٌ فَواسِقُ، يُقْتَلْنَ في الحِلِّ والحَرَمِ: الحَيَّةُ، والغُرابُ الأبْقَعُ، والفَأْرَةُ، والكَلْبُ العَقورُ، والحُدَيّا»[2].

فَمادَّةُ (فسق) تدور حول الخروج بسبب الفساد، وأمّا صيغتُها المضارعيّة في التّعبير عن حدثٍ مضى وانتهى فإنّما تدلُّ على استحضارِ صورة تَعَدّيهم حُدودَهم أمام القارىء كأنّها تقع الآن، فضلًا عن كون المضارع يفيد دائمًا معاني التجدّد الاستمراريّ، الذي يفيد هنا تجدُّدَ العذاب بتجدُّدِ موجباته.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (فسق).

(2) البخاري، الجامع الصّحيح، برقم: (3314)، ومسلم، الصّحيح، برقم: (1198)، واللّفظ له، وغيرهما.

نُكتةُ تَغايُرِ وصفِ معصيتِهم بينَ العَدْوِ والظُّلمِ والفِسقِ:

وَصَـفَ الـقـرآنُ فَـعْـلَـتَـهُـم الشَّنيعةَ عُدوانًا وظُلمًا وفِسقًا؛ لأنّها خروجٌ عن الـجـادّة وتَـعَـدٍّ عـلـى حـرمـة السّبت، وظُلمًا لأنفسِهم قبل كلّ شيء

ممّا تقدَّم ذِكره في معاني العَدْو والظّلم والفسق يتبيّن لنا أنّه لا تَرادُفَ ألبتّةَ بين هذه الألفاظ، وأنّ كلَّ لفظة تأتي في موضعها الأليق بها، والذي يترتّب منه على تبديلها بغيرها إمّا ذَهابُ الرَّوْنق الذي يكون معه سقوطُ البلاغة، وإمّا فساد المعنى الذي يكون منه فسادُ الكلام[1]، فقد سمّى القرآن فَعْلَتَهم ابتداءً على أنّها كانت عُدوانًا من هذه الفرقة من أهل القرية؛ لأنّهم تجاوزوا حَدَّهم وخالفوا أوامرَ ربّهم في حُرْمةِ الصّيد في يوم السّبت، دون غيرهم من أهل القرية الذين التزموا النّهي عن الصّيد.

ثمّ سمّاها ظلمًا في معرِض الحديث عن أخذهم؛ لأنَّ القرآن الكريم بيّن في آياتٍ كثيرةٍ سنّته الثابتةَ في أخذ القرى الظّالمة واستئصال شَأْفَتِها، وبيَّنَ أنّ الظُّلمَ مُؤذِنٌ بزوال العُمْران، فالظّلم هو المعنى الأشمل الذي يضمّ عدوانهم وغيره. ثمّ جاء التّعبير عن فَعلتِهم بوصفها فسقًا في معرِض التّعليل الدقيق لسبب أخذهم بالعذاب البئيس، فقد خرجوا عن الجادّة بفِسْقِهم، فاعتدَوْا بصيدهم، فوقعوا في الظّلم بمعناه العامّ.

معنى الفاء في ﴿فَلَمَّا﴾:

ترتيبُ عقوبة جديدة متفرِّعة على الذَّنْب السابق

الفاء عاطفةٌ لترتيبِ ما بعدها على ما قبلها، وهي تُفيد التّرتيبَ والتّعقيبَ السريع، حيث رتّبت الفاء عقوبة جديدة لم تتأخّر على ذنْبٍ آخرَ تفرّع عن الذنب السابق.

نكتة التّعبير عن الشّرط بـ(لمّا):

(لمّا)، تدخل على الفعل الماضي، فتقتضي جملتيْن وجدت ثانيتهما عند وجود أولاهما، فهي حرفُ وجوبٍ لوجوب، أو وجودٍ لوجود، أي: وُجوبُ وُجودِ الجملة الثّانية لوجود الأولى، ورأى بعض

(1) الخطّابيّ، البيان في إعجاز القرآن، ص: 26.

النّحاة أنّها ظرفٌ بمعنى (حين)[1] تضمَّن معنى الشَّرط، ويكون قولهُ: ﴿عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ جملةً لا محل لها من الإعراب، أو في محلٍّ جرّ بإضافة (لـمّا) إليها، والعامل فيها جوابها، وهو قوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾، وهي جملة لا محلّ لها مِن الإعراب؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم[2]، وبهذا فقد تحقّق الفعلان في الزمن الماضي، وكان وقوع الفعل الثاني مترتّبٌ على وقوع العتوّ.

تحقُّقُ الفعلين في الزَّمن الماضي، ووقــوعُ الفعل الـثـاني مـترتِّـبٌ على وقوع العُتوّ

بلاغة استعمال أسلوب الشرط في الآية:

أسلوب الشّرط يربط جوابه بتحقّق فعله، فتكون النتيجة مرتبطة تمامًا بالسبب، وفي هذه الآية جاء هذا الأسلوب الشَّرْطيُّ ليبيّن جزاءَ اللّه للظالمين المداومين على ظلمهم، وتكبّرهم وعدم رجوعهم للحقّ، شأنها في ذلك شأن كثيرٍ من سنن اللّه الكونية والاجتماعيّة التي وردت في القرآن الكريم على هذا الأسلوب الشرطيِّ كقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

سـنّـة الـلـه في إهـلاك الظالمين لا تتخلَّف ألبتّةَ

غرض التَّعبير عن النِّسيان بالعُتُوّ:

المعنى المحوريُّ للعُتوِّ هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابة، أو تماسكٌ دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتَّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السُّنون الطوال[3]، وقوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ﴾ إمّا بمنزلة التَّأكيد لقوله: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ﴾؛ صيغ بهذا الأسلوب لتهويل النسيانِ والعتوِّ، ويكون المعنى: أنَّ النسيان، وهو الإعراض، وقع مقارنًا للعُتوِّ[4]. ويمكن أن تكون هذه عقوبةً أخرى، حيث عاقبهم أولًا بالبؤس والشقاء في المعيشة، ولكنَّ هؤلاء القوم لم يَزِدْهُم البؤسُ والسوءُ إلا عتوًّا وإصرارًا على الفسق والظّلم، فَدَمْدَمَ عليهم ربُّهم

الـــدَّوامُ على فعل المعصية يستوجب عقوبةً أشدّ

(1) ابن هشام الأنصاريّ، مغني اللّبيب، ص: 309.
(2) الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 67/3 - 68.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 153/9.

بذَنْبهم، ومَسَخَهم مَسْخَ خَلْقٍ وبَدَنٍ، فكانوا قِردةً بالفعل، أو مَسْخَ خُلُقٍ ونَفْسٍ فكانوا كالقردة في طَيْشها وشرِّها وإفسادها لما تَصِلُ إليه أيديها[1].

معنى ﴿مَّا﴾ في ﴿مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾:

أوامـــر الـلـه ونواهيه عظيمةٌ

(ما) اسم موصول بمعنى (الذي)، والتّقدير: عن الأمر الذي نُهوا عنه، والتّعبير بالاسم الموصول هنا يفيد تعظيمه ورفع شأنه.

نُكْتَةُ مجيء جملة صلة الموصول بالفعليّة لما لم يُسمّ فاعله:

الحذف للإيجاز وللانشغال بالفعل عن الفاعل

جملة ﴿نُهُواْ﴾ صلةُ الموصولِ لا محلَّ لها من الإعراب، وقد جاءت مبنيَّةً لما لم يُسَمَّ فاعلُه؛ لأنّ الفاعل معلومٌ مقرّرٌ في عقول المخاطَبين، فحَذْفُه جاء إيجازًا من ناحية، ودعوةً لهم للانشغال بمضمون النّهي دون الانشغال بالنّاهي.

نُكتةُ العُدولِ عن ذكرِ ذَنْبِهم على وجه التّعيين:

حرمة الخروج عن طاعة الله مهما كانت صوره وأشكاله

لم يَقُل النّصُّ الحكيم: (فلمّا عتوا عن اعتدائهم)، أو: (حرمة اصطيادهم في يوم السّبت)، وإنّما قال: ﴿عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾؛ ليبيّن أنّه لا يَهُمُّ نوعُ المعصية وشكلُها بقَدْر كونها خروجًا عن طاعة الله فيما نهى عنه، فمناطُ الأمر أنّهم ما التزموا بما نهوا عنه بغضّ النّظر عن طبيعته وماهيّته.

بلاغة الإطناب في وَصْف ما وقعوا به:

من صوَر البلاغة إعادة ذكر أمرٍ تقدَّمَ بصورةٍ جديدةٍ لزيادة رسوخ مدلوله في نفوس السّامعين

أعادت هذه الآية وَصْفَ اعتدائهم بصورة أخرى عند من يرى أنّه نفس الذَّنْب الأوّل، وعلى هذا الرأي تكون الإعادة من باب الإطناب في الوصف؛ يقول ابن عاشور حول هذه الصورة الفنّيّة: "تَكْريرٌ لِنَظيرِهِ الَّذي تَقَدَّمَ آنِفًا لِزيادَةِ رُسوخِ مَدْلولِهِ في نُفوسِ السّامِعينَ اهْتِمامًا بِما تَضَمَّنَهُ لِكَوْنِهِ مَعْنًى لَمْ يَسْبِقْ سَماعُهُ لِلْمُخاطَبينَ فَلَمْ

(1) محمد رضا، تفسير المنار: 370/9.

يَقْتَنِعْ فيهِ بِمَرَّةٍ واحِدَةٍ، وَمِثْلُ هَذا التَّكْريرِ وارِدٌ في كَلامِ العَرَبِ، قالَ لَبيدٌ:

فَتَنازَعا سَبِطًا يَطيرُ ظِلالُهُ *** كَدُخانِ مُشْعَلَةٍ يُشَبُّ ضِرامُها

مَشْمولَةٍ غُلِثَتْ بِنابِتِ عَرْفَجٍ *** كَدُخانِ نارٍ ساطِعٍ أَسْنامُها[1]

فَإِنَّهُ لَمّا شَبَّهَ الغُبارَ المُتَطايِرَ بِالنّارِ المَشْبوبَةِ واسْتَطْرَدَ بِوَصْفِ النّارِ بِأَنَّها هَبَّتْ عَلَيْها ريحُ الشَّمالِ وَزادَتْها دُخانًا وَأَوْقَدَتْ بِالعَرْفَجِ الرَّطيبِ لِكَثْرَةِ دُخانِهِ، أَعادَ التَّشْبيهَ ثانيًا لِأَنَّهُ غَريبٌ مبتكر"[2]، والحقيقة أنّهم اقترفوا ذنبيْن: فعل المعصية، ونسيان ما ذُكّروا به وتجاهله.

الموقع النحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا﴾:

الجملة هنا وقعت جوابًا للشرط غير الجازم، ولا محلَّ لها من الإعراب، وجاءت بالفعل الماضي لما تقدّم من أنّ (لمّا) إذا دخلت على الفعل الماضي كان جوابها ماضيًا أيضًا، وجاء جواب(لمّا) هنا دون اقترانه بالفاء التي تربط جواب الشّرط بمحذوف، وذلك حتّى تبيّن أنّه بمجرَّدِ حدوثِ فعل الشّرط تحقّق جوابُه على الجميع دون حاجة إلى تقدير محذوفات.

دلّ جـواب (لمّا) عـلى تـعـجـيـل وقوع عذاب الله وتحقّقه فيهم

معنى اللّام في ﴿لَهُمْ﴾:

اللّام هنا لام التّخصيص؛ فالعقوبةُ وقعت عليهم دون غيرهم، والقول وُجّه لهم دون غيرهم.

نكتة تقديم شبه الجملة: ﴿لَهُمْ﴾:

تقديم شبه الجملة هنا أفاد معنى التّخصيص أيضًا؛ لأنَّ العقوبة وقعت عليهم دون غيرهم، ويمكن أن يكون التّقديم أيضًا من باب تعجيل ذكر المضرّة.

استحقّتِ الفِرقةُ المعتدية عقوبةً لم تكن لغيرها

(1) لبيد بن ربيعة العامريّ، ديوان لبيد، الأبيات: 7 - 8.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 748/1.

دلالة الأمر بـ﴿كُونُواْ﴾:

تخرج صيغ الأمر عن الوجوب إلى أغراض مجازيّة أخرى، وهنا دلّت على التّكوين وسرعة التحقّق

الأمر هنا ليس على ظاهره لأنّه لا يُعقل أن يكون أمرُ المسخِ مَنوطًا بإرادتهم وضمن مقدورهم، وإنّما يُحمل على دلالات مجازيّة، فقيل: إنّه للتّسخير[1]، على معنى التّكوين، لذا قال ابن عاشور: "كونوا: أمر تكوين، وتكوينهم قردة يَحتمِلُ أن يكون بتصيير أجسامهم أجسامَ قردةٍ مع بقاء الإدراك الإنساني - وهذا قول جمهور العلماء والمفسرين - ويَحتمِل أن يكون بتصيير عقولهم كعقول القردة مع بقاء الهيكل الإنساني، وهذا قول مجاهد. والعِبرة حاصلة على كلا الاعتبارين، والأوّل أظهر في العِبرة؛ لأنَّ فيه اعتبارهم بأنفسهم واعتبار النّاس بهم، بخلاف الثّاني. والثّاني أقرب للتّاريخ"[2]، ويمكن أن يكون هذا الأمر دالًّا على سرعة تحقّق عقوبة الله فيهم، فكأنّه أمرٌ قد وُجّه إليهم فبادروا جميعًا إلى تحقيقه دُفعة واحدة.

نكتة تنكير ﴿قِرَدَةً﴾:

أفاد تنكير قردة هنا معنى التّحقير لهم، فسواء أكان هذا المسخ حقيقيًّا أو معنويًّا، ففيه من التّحقير لهم والتّقليل من شأنهم؛ لفظاعة ما ارتكبوا وتَكرار عصيانهم.

غرض الوصف بـ﴿خَٰسِـِٔينَ﴾:

استحقّوا الوصف بالذلّ والإبعاد لتمرُّدِهم على شريعة الله وإبعادِهم المصلحين عن تحقيق دورٍ فاعلٍ فيهم

المعنى المحوريّ لـ(خسأ) هو إبعادُ ما هو دقيق القدر عن الحَوْزة أو الأثناء، كما في طَرد الكلب والخنزير من الحَوزة، وكمنعه من الدنوّ منها كذلك. ومن الصُّور الماديّة لهذا المعنى أيضًا: تخاسأ القومُ بالحجارة: ترامَوا بها، فهذا التَّرامي دفع بقوّة للحجارة، يُراد به إبعادُ المرمى لكن بإصابته.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مُبْعَدين، ويكون

(1) القزوينيّ، تلخيص المفتاح، ص: 105.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 544/1.

الخاسئُ بمعنى الصاغرِ القميء، والمعنى الثاني: لازمٌ للأول فالمعنيان تتأتّى إرادتهما معًا[1]. فيلاحظ من المعنى المحوريّ لهذه الكلمة أنّ وَصْفَهم بهذا الوصف المنطوي على معنى الإبعاد متّسقٌ مع جريمتهم في إبعاد شريعة الله عنهم، وإبعادِ الواعظين عن تحقيق دورٍ تأثيريٍّ في حياتهم.

بلاغة المتشابه اللّفظيّ في قصّة أصحاب السّبت:

وردت الإشارة إلى هذه القِصّة من قِصَصِ بني إسرائيل في عدّة سورٍ من القرآن الكريم، ومن عادات القرآن الكريم الإجمالُ ثمّ البيان، لذا أَجْمَلت سورةُ البقرة ما جرى مع أهل هذه القرية إجمالًا تناسَبَ مع السياق الذي جاءت فيه؛ فقد استعرضت سورةُ البقرة جانبًا طويلًا من تاريخ بني إسرائيل مع أنبيائهم، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ في مرحلة التّيه، وذلك في سياق بيان طبيعة هذه الشخصيّة المتمرِّدة التي وَضعتِ المعوّقاتِ الكثيرةَ في طريق أنبيائهم من أجل صدِّهم عن تحقيق الخلافة التي أوكلت إليهم في الأرض المقدّسة، فكتب الله عليهم التّيهَ في الصّحراء جرّاء أفعالهم ونَقْضِهمُ العهودَ والمواثيقَ التي أُخذت عليهم.

لذا جاءتِ الإشارةُ إلى قِصّة القرية التي كانت حاضرةَ البحرِ في سورة البقرة بشكلٍ موجزٍ يتلائم مع المقام الذي جاءت فيه في كشف نقضِهمُ العهودَ والمواثيقَ، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [البقرة: 63 - 66].

وجاءت الإشارة إلى هذه القِصّة في موضعيْن آخريْن من سورة النّساء بما يتلائم والسّياق الذي جاءتا فيه، فقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (خسأ).

وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾

[النساء: 46 - 47]

فكانتِ الإشارةُ إلى أصحاب السّبت من باب الوعيد لأهل الكتاب بتذكيرهم بما جرى لأسلافهم الذين عَصَوْا أنبياءهم ولم يلتزموا بما هو مقرّرٌ عليهم في شريعتهم، وشأنُ هؤلاء المخاطَبينَ في زمن النّبيّ محمّدٍ ﷺ سيكون كشأن أولئك السابقين إن لم يلتزموا القرآنَ الذي جاء مصدِّقًا لما معهم في توراتهم وشريعتهم.

فجاءت الإشارة إلى السّبت على أنّه اسمٌ لليوم الذي نَقض فيه أجدادُهمُ الميثاقَ الذي أُخذ عليهم بأن لا يصطادوا فيه، لكنّهم ما التزموا بهذا الميثاق الغليظ الذي أُخذ عليهم، ولم يشكروا هذه النّعم التي قُدّمت إليهم فوقعوا في العصيان.

ثمّ جاءت أخيرًا وفي سورة مكيَّةٍ إشارة مجملة ليوم السّبت في سورة النّحل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٣ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٢٤﴾ [النحل: 123 - 124] في سياق الحديث عن إبراهيم عليه السلام بكونه إمامًا في الخير، طائعًا خاضعًا لله، ثمّ بعد ذلك أوصى القرآنُ النّبيَّ ﷺ أن يتّبع دين إبراهيم عليه السلام، وذكّر المؤمنين باختلاف أهل الكتاب في شأن يوم السّبت سواءً أكان هذا الاختلاف بشأن تعيينه عيدًا لهم دون يوم الجمعة مخالفة للمسلمين، أم بسبب افتراقهم إلى فئاتٍ ثلاث في حرمة الاصطياد فيه[1]؛ فإنَّ التّذكير هنا منصبٌّ أيضًا على المؤمنين لتحذيرهم من هذه الاختلافات حتّى لا يصيبهم ما أصابهم.

وهكذا نرى أنّ السّورة الوحيدة التي فَصَّلتْ ما جرى في يوم السّبت إنّما كانت سورةَ الأعراف التي تجلّى فيها استعراضُ رحلةِ هذا الدّين الطويلةِ عبر كوكبةِ الأنبياء المصطفَيْن بدءًا من آدم عليه السلام وانتهاءً بسيّدنا محمّدٍ ﷺ، وما جرى معهم من أحداثٍ وتحدّياتٍ شاقّة استطاعوا أن يجتازوها وأن يصبروا عليها.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 612/4.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الظُّلم والشرك والكفر والنّفاق والجَور والهضم والطّغيان:

الظّلمُ أعـمُّ من الجور والهضم؛ لأنّـه يشمل أيَّ عدولٍ أو انحرافٍ عـن الـجـادّة المستقيمة

تقدّم الحديث عن أنّ لفظة الظّلم تعمُّ لتشمل كلّ الذّنوب والمعاصي صغيرها وكبيرها، فقد سمّى القرآنُ الشِّركَ والكفرَ: ظُلمًا؛ فقال على لسان لقمان: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، وقال عن الكفر: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [البقرة: 254]، وكذلك النّفاق وسائر المعاصي فإنّه من خلال العَوْد لدلالاتها المعجميّة والاصطلاحيّة واستعمالاتها القرآنيّة - نجد أنَّ لفظة الظّلم تعمُّها جميعًا.

أمّا في التّفريق بين الجَوْر والهَضْم والظُّلم فيقول صاحب الفروق اللغوية: "الجَوْر خلافُ الاستقامةِ في الحُكْم، وفي السيرة السلطانية، تقول: جارَ الحاكم في حُكْمِه والسلطانُ في سيرته؛ إذا فارقَ الاستقامةَ في ذلك، والظلم ضررٌ لا يستحق ولا يُعقب عِوضاً، سواءً أكان هذا من سلطان أم حاكم أو غيرهما، ألا ترى أنَّ خيانةَ الدَّانِق والدرهم تُسمّى ظلماً ولا تُسمّى جَوْراً، فإن أُخِذ ذلك على وجه القَهْر أو المَيْلِ سمِّيَ جَوْرًا، وهذا واضح.

وأصلُ الظّلم نقصانُ الحق، والجَوْر: العدولُ عن الحق، من قولنا: جارَ عن الطريق، إذا عَدل عنه. وخُولِفَ بين النقيضين فقيل في نقيض الظلم: الإنصاف؛ وهو إعطاء الحقّ على التَّمام، وفي نقيض الجَوْر: العدل؛ وهو العدول بالفعل إلى الحق"[1].

وقد استعمل القرآن الكريم كلمة الجَوْرِ في قوله: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا جَآئِرٞۚ وَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٩﴾ [النحل: 8 - 9]؛

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 226.

فجاءت وصفًا للسبيل المائل. وبهذا يتبيّن أنّ لفظة الظّلم أعمّ في الدّلالة وفي الاستعمال من لفظة الجَوْر.

أمّا الهَضْم: فقد عرّفه الراغب فقال: "هو شَدْخُ ما فيه رَخاوةٌ...، واستُعير الهَضْمُ للظُّلم"[1]، وقال السَّمين الحلبي: "الهضمُ: النقصُ، ويقال: هَضَمْتُه، واهتَضَمْتُه، وتهضَّمْتُه: أي نقصتُه حقَّه، وقيل: الظّلم والهضم متقاربان"[2]، ولكن هل هما حقاً كذلك؟ يفرّق بينهما صاحب الفروق قائلًا: "الهضْمُ: نقصانُ بعضِ الحقّ، ولا يُقال لمن أُخِذ جميعُ حقِّه هضم، والظُّلم يكون في البعض وفي الكل"[3]. وعلى هذا فالظّلم أعمُّ من الهضم، فكلُّ هضمٍ ظلمٌ، وليس العكس، ولم ترد لفظة (الهضم) إلّا في موضع واحد في القرآن الكريم مع لفظة الظّلم: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا يَخَافُ ظُلۡمٗا وَلَا هَضۡمٗا ١١٢﴾ [طه: 112]. وأمّا الطغيانُ فهو: "تجاوزُ الحَدِّ بالعِصيان"[4]، أو هو: "مجاوزَةُ الحدِّ في المكروه مع غَلَبةٍ وقَهْر"[5].

وقد اجتمعت كلمتا الظّلم والطّغيان في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ٥٢﴾ [النجم: 52]، فَدَلَّ ذلك على أنَّ الطّغيان ظلمٌ مخصوصٌ؛ لأنَّ فيه تجاوزًا وغلبةً وقهرًا.

العُتوّ والعُثوّ:

يشترك العُتُوُّ والعُثُوُّ في تحقُّقِ الفساد في كليهما

تقدّم سابقًا أنّ المعنى المحوريّ لـ(عتوًا) هو امتدادُ الشيء مادّة، أو بقاءٌ في صلابةٍ أو تماسك دقيق، وبقاء ذلك الشيء حتّى عتا امتدادًا وتماسُكًا وصَلابة، كأن لم تُؤثر فيه السنون الطِّوال[6]. والعثوّ

(1) الرّاغب، المفردات: (هضم).
(2) السّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 293/4.
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 226.
(4) الرّاغب، المفردات: (طغى).
(5) العسكريّ، الفروق، ص: 224، والفيروباديّ، بصائر ذوي التمييز: 508/3.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (عتو).

في الفساد الذي يُدرك حسًّا أو حكمًا[1]، وقد وردت في خمسة مواضع في القرآن الكريم على نظمٍ واحدٍ: ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60، الأعراف: 74، هود: 85، الشّعراء: 183، العنكبوت: 36].

فتشترك الكلمتان في تحقّق الفساد فيهما، ولكنّه يكون مع (عتت) فيه امتدادٌ مع صلابة وتماسك.

(1) الرّاغب، المفردات: (عثى).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 15 ، 812 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-11-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 15 : المجلد الخامس عشر، سورة الأعراف من الآية 164 إلى سورة الأنفال الآية 26.
-1القرآن - تفاسير نحوية -2 القرآن، بديع -3 القرآن، بلاغة -4 القرآن - سور وآيات -5 القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-11-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7668393 بتاريخ 2024/01/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»